نحو تفعيل منظومة القيم العليا من خلال علم التزكية: مقاربة تربوية

Towards activating the system of higher values through the science of sponsorship: an educational approach

د. محمد إلياس المراكشي
Dr. Marrakchi Mohamed Ilyass
أستاذ بجامعة عبد المالك السعدي – تطوان
Professor at Abdul-Malik Al-Saadi University – Tetouan
Dr.ilyass_marrakchi@outlook.com

ملخص البحث

تتحدد القيم الكبرى في الإسلام في "التوحيد والتزكية والعمران"، فهي تشكل مرجعية مقاصدية لفهم الغاية من الوجود، وبيان غاية الحق من الخلق، كما أنها بمثابة منظومة معيارية تنبثق عنها القيم الرئيسة والفرعية، ويسعى هذا البحث في مقاربة تربوية إلى بيان مكانة منظومة القيم العليا في الفكر الإسلامي، ودراسة سبل تفعيلها من خلال علم التزكية، مع استشراف آفاق التوسع في بحثها، وتحديد أهم آثارها على الفرد والمجتمع، خصوصا ما يتعلق بمدى إسهامها في ترميم صرح الحضارة الإسلامية والإنسانية.

Résumé

Les valeurs fondamentales de l'Islam sont déterminées à travers «Le Monothéisme, la Purification et l'Urbanisme», elles représentent une référence pour comprendre la raison de l'existence, et mettre en évidence le but de la Création. Ainsi, elles sont considérées comme un système normatif d'où émergent les valeurs principales et subsidiaires.

Cette étude cherche, dans une approche pédagogique, à montrer l'importance de ce système de valeurs dans la pensée islamique, et étudier les moyens de sa mise en œuvre à travers l'éducation spirituelle, tout en explorant les perspectives d'expansion de ses recherches, et en déterminant ses effets importants sur l'individu et la société, notamment ce qui concerne sa contribution à la restauration de l'édifice de la civilisation islamique et humaine.

مـــــقـــــدمـــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد: تعيش الأمة الإسلامية أزمات قيمية وأخلاقية عديدة، نتجت عنها انتكاسة حضارية خطيرة، وما لم يتعمق أفرادها في فهم العوامل التي تبني الحضارات وترقيها أو تهدمها وتفنيها، فلن تستطيع أن تجد الحلول المناسبة لأزمتها الحضارية.

ولما كان السياق المعاصر يفرض على المتخصصين في كل مجال أن يستحضروا أنه "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، فإن المهتمين بالعلوم الإنسانية، مطالبون أن ينظروا إلى الواقع نظرة بالغة الدقة، وأن يبحثوا الفرضيات المحتملة للإجابة عن التساؤل الآتي: ما الذي تحتاجه الأمة لبناء ثقافة مجتمعية إسلامية تسهم في ترسيخ أسس النهضة الحضارية المنشودة، بعيدا عن التطرف والانحلال؟

لعل من سديد الأفكار الموجّهة لبحث هذا الموضوع، أن نهضة الأمة من جديد لا تتطلب سوى توفر الشروط والظروف التي نشأت فيها حضارتها أول مرة، والتي تفاعلت بفضل خطاب كان يستمد نوره من بيان القرآن والسنة وتأثيرهما، ليسهم في ترسيخ العقيدة السليمة، التي تثمر العمل الصالح المتقن والفعال.

ولما كان تغير الزمان وتطوره، يفرض على كل أمة الاجتهاد في تجديد فكرها وثقافتها من أجل تصحيح رؤيتها إلى العالم، فإن من بين ما يحتاج إلى التجديد في عصرنا، تجديد النظر إلى "علم التزكية" والاستفادة مما يشتمل عليه من رصيد فكري ومخزون قيمي، يروم الكشف عن أحوال القلوب، ويهدف بالأساس إلى تحقيق التربية الروحية من خلال تطهير النفوس وتصفيتها من النقائص والدناءات، وتحليتها بالفضائل والكمالات.

ومعلوم أن القيم الإسلامية الكبرى وما يتفرع عنها من قيم فرعية، تتمحور حول **الإيمان** بوحدانية الله سبحانه واليقين في أنه الخالق المدبر، **والإيمان** بأنه سبحانه أجرى هذا الكون وفق سنن وقوانين قابلة للفهم والاكتشاف، لتيسير عمارة الأرض بالخير والصلاح والرشاد، **والإيمان** بأن عمارة الإنسان للأرض إنما تتحقق بتزكية النفس وتزكية نظام المجتمع.

وبالتالي تتحدد القيم الكبرى في الإسلام، حسب عدد من المفكرين المعاصرين، ومنهم إسماعيل الفاروقي، وطه جابر العلواني وفتحي حسن ملكاوي في "التوحيد، والتزكية، والعمران"، فهي تشكل مرجعية مقاصدية لفهم الغاية من الوجود، وبيان غاية الحق من الخلق، كما أنها بمثابة منظومة معيارية تنبثق عنها القيم الرئيسة والفرعية.

إن التوحيد والتزكية هما أساس العمران الحضاري في الإسلام، فالتوحيد حقيقة مطلقة يقود إليها التفكر والتأمل السليم قبل أن يتعزز بأدلة النقل والعقل، أما التزكية فهي عملية ارتقاء بالنفس الإنسانية وسمو بها، وتطهير للمجتمع من ألوان الفساد والانحراف، وتعزيز لمؤشرات المسؤولية والتكافل الاجتماعي، والعمران سعي

بشري لتوظيف طاقات الإنسان في بناء حياة عامرة بالخير، تحقق مقاصد الخلافة في الأرض بما يطور الحضارة البشرية ويرشدها، وهكذا تستكمل عناصر رؤية العالم في التصور الإسلامي فيما يتعلق بالله والإنسان والكون[1].

ولا شك أن الحديث عن القيم المعيارية باعتبارها منظومة، يحمل في ثناياه إشارات واضحة إلى مدى التكامل بينها في تشكيل الفكر الإسلامي المستنير بهداية الوحي، وصناعة الإنسان القاصد، وبناء الحضارة الراشدة.

ويسعى هذا البحث في مقاربة تربوية إلى بيان مكانة منظومة القيم العليا "التوحيد والتزكية والعمران" في الفكر الإسلامي، ودراسة سبل تفعيلها من خلال علم التزكية، مع استشراف آفاق التوسع في بحثها، وتحديد أهم آثارها على الفرد والمجتمع، خصوصا ما يتعلق بمدى إسهامها في ترميم صرح الحضارة الإسلامية والإنسانية.

ومن مسوغات اختيار هذا الموضوع الذي يربط بين "منظومة القيم" و"علم التزكية" و"بناء الحضارة"، محاولة التنبيه إلى خطورة منهج الاستلاب الفكري الذي يستولي على عدد من الشباب، والذي تتجلى آثاره إما في الانشغال بأمجاد الماضي وتراث السلف والانصراف عن العمل للحاضر والمستقبل، وإما في الدعوة إلى قطع الصلة بالتراث الإسلامي والانشغال بمظاهر الحضارة الغربية المعاصرة.

إن الفكر الإصلاحي المستنير القاصد إلى صناعة جيل مؤثر فاعل في المجتمع، يقوم أساسا على تحديد الوجهة والمقصد وضبط الوسائل والأدوات، وهنا تكمن قيمة التوجيهات التي يقدمها علماء التزكية، رغبة في ترسيخ معنى التعايش مع الجماعة، ومعنى الجهاد في مخالفة النفس وتسخير طاقاتها لخدمة الوطن والأمة والإنسانية جمعاء.

ولا شك أن النفس الإنسانية عندما تكتسب منطق الفكرة الإصلاحية من خلال القيم الإسلامية الكبرى "التوحيد والتزكية والعمران"، يتولد لديها منطق العمل الاجتماعي، الذي يتفاعل فيه الإنسان مع مكونات محيطه في إطار الزمن الذي يعيشه، ليسهم في التغيير بلسان حاله ومقاله.

وإذا كانت أهمية الموضوع تتجلى من خلال ما تقدم وما سيأتي بسطه وتفصيله لاحقا، فإن من الأهداف التي يسعى البحث إلى تحقيقها:

- ترسيخ أهمية إعمال الفكر والانشغال بالذكر وسائر الأعمال الصالحة، ومقاومة كل مظاهر الغفلة والعطالة الفكرية والسلوكية.

- التأكيد على أهمية الانفتاح على العلوم الشرعية والإنسانية والاجتماعية والاقتصادية وسائر العلوم والمناهج الكونية نظرا لما بينها من التفاعل والتكامل، ومناهضة كل مظاهر الجهل بثقافة التعدد والتنوع.

1- منظومة القيم العليا، د فتحي ملكاوي، ص: 14 المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2013م.

- بيان الأهمية التربوية لعلم التزكية الذي يشتمل على منهج ينطلق من الأخلاق ليصل إلى الفاعلية الاجتماعية، ودراسة مدى التماهي بين مبادئه وبين منظومة القيم العليا التي تنشد العمران انطلاقا من التوحيد ومرورا بتزكية النفس.

ومن أجل استيفاء حيثيات الموضوع وإيلائها ما تستحقه من الدراسة، تم اعتماد مجموعة من المناهج العلمية، في مقدمتها المنهج الاستقرائي لبحث وتحديد القيم العليا التي تندرج تحتها سائر القيم الإسلامية والإنسانية، ثم المنهج التحليلي للوقوف على أهميتها ومكانتها، ثم المنهج التركيبي لبيان التجليات التربوية لتلك القيم ودراسة سبل تفعيلها من خلال علم التربية والتزكية.

ولأجل بيان ذلك على الوجه الأفضل، تم تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث، يتناول الأول منها قيمة التوحيد وتجلياتها التربوية، ويتناول الثاني التجليات التربوية لقيمة التزكية، وخصص الثالث لتجليات قيمة العمران، وقد تم التقديم للموضوع بهذه المقدمة كما ذيل بخاتمة تشتمل على أبرز النتائج والخلاصات، فاستقرت خطة البحث على النحو الآتي:

- مقدمة

- المبحث الأول : قيمة التوحيد وتجلياتها التربوية

- المبحث الثاني : قيمة التزكية وتجلياتها التربوية

- المبحث الثالث : قيمة العمران وتجلياتها التربوية

- خاتمة

❖ **المبحث الأول : قيمة التوحيد وتجلياتها التربوية**

التوحيد أساس الدين، وجوهر رسالة الله إلى الأنبياء والرسل، وهو حقيقة مطلقة تقود إليها الفطرة من خلال التفكر والتأمل، وهو كذلك رؤية عامة إلى الكون والزمان والمكان والتاريخ الإنساني والمصير، كما أنه تعبير عن الغاية النهائية من جميع المساعي الفكرية للإنسان المسلم.

وتبدأ المنظومة القيمية في الإسلام بتوحيد الخالق عز وجل، ويعقبه العمل على تزكية النفس ثم السعي في تعمير الكون، ومن هذه المنظومة المتكاملة والمترابطة يمكن اشتقاق القيم الأخرى، فقد نصت آيات من القرآن على ما أودعه الله في الناس من فطرة التوحيد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾ [2]، وبذلك كانت صحة التوحيد وسلامته والعلم بوحدانية الله مما استقر في الفطرة، وما من نفس إلا وهي تشعر به، لكن قد تغالبها بعض العادات المتوارثة أو تتأثر ببعض الإيديولوجيات المنحرفة[3].

لذلك أكد العلماء على أهمية بناء وترسيخ بعض المفاهيم والقيم المنبثقة من صميم التوحيد، والتي تشكل محور عقائد الإسلام وتشريعاته، من أهمها "السماحة، والحرية، والحق"، فهي تعبير عن الاعتدال والتوسط والمساواة والعدل، كما أن نقيضها من الغلو والتقصير والظلم والاستبداد.. إنما ينشأ عن انحراف في فطرة التوحيد[4].

وحين كان المجتمع الإسلامي واعيا بمركزية هذه القيم في مجالات الحياة، كان متصفا بالتماسك والممانعة، وحينما احتل مراكز القيادة من لم ينشؤوا على هذه القيم، ومن لا يرون من سبل البناء الحضاري إلا ما أُروا من رواد الفكر الغربي، انتشر التبشير بالقيم المادية بوصفها معيارا للحضارة والتقدم، فارتبطت أحلام الشباب بها، واختلت المنظومة التي كانت تمثل مرجعية التصور والسلوك، واختلطت على الناس الرؤى وبدأ المجتمع يفقد هويته، خصوصا تلك المرتبطة بالجانب التزكوي الذي من أجله تعددت الطرق وتنوعت مناهجها التربوية وفي سبيله أنشأت المساجد والرباطات والزوايا[5].

ومن المقرر لدى العلماء، أن منهج التزكية منهج تربوي ذوقي لا يتعارض مع كليات الشرع أو بدهيات العقل، ولا مجال فيه لإنكار للفقه أو للعقيدة، أو تعمد مخالفة مقتضياتهما، وهو ما يفسر التماهي بين العقيدة والفقه والسلوك منذ زمن النشأة والتأسيس، بالنظر إلى ما كان عليه أئمة الفقه ومنهم الإمام مالك (ت179ه) من نسك

2- سورة الأعراف: 172.

3- التحرير والتنوير، ابن عاشور (9/ 170، 171) و(10/ 82).

4- مقاصد الشريعة، ابن عاشور، ص: 114.

5- منظومة القيم العليا، ملكاوي ص: 14-15.

وتعبد، وما أظهره الإمام أبو القاسم الجنيد (ت297ه) من معرفة بالفقه وعلم الكلام[6]، وما كان عليه الإمام الأشعري (ت324ه) من انتساب فقهي وما تجلى عليه من آثار التزكية[7].

إن مسوغات الحديث عن التلازم بين علم التزكية والتوحيد، لا تنحصر فيما يقتضيه التكامل المعرفي أو المنهجي بين العلوم، بل هو استجابة لدعوة قرآنية للحياة وفق منهج متكامل، تجلت في قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [8]، وها هو ذا رسول الله ﷺ بعدما علَّمَ الصحابة الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان، قرر ورسخ مفهوم التكامل والتلازم بينها، بقوله لعمر بن الخطاب ﷺ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[9]، أفلا يكون هذا الحديث دعوة نبوية إلى الحياة !

لقد بين الشيخ أحمد زروق (ت899ه) استنادا إلى هذا الحديث أن علم التزكية هو روح العقيدة والفقه، وأنهما له كالجسد، لا كمال لهما إلا به، كما لا ظهور له بدونهما، فهما شرط صحته، كما أنه شرط في كمالهما[10].

ولا يخفى اهتمام الحسن اليوسي (ت1102ه) بقضايا التوحيد من خلال عدد من المؤلفات، كما نجده يوجه تلامذته إلى تصحيح التوحيد قبل سلوك طريق التزكية، في عدد من رسائله، مثل قوله في إحداها: «وعليكم بالتعلم والسؤال عما لا تعلمون، ولا تكتفوا بعقولكم، وقلدوا الفقهاء في الأحكام الشرعية من الديانات والحلال والحرام، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية، ولا تقلدوا في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب»[11].

وقد استرسلت وتوالت في القرن الهجري الأخير، التآليف التي أنتجها علماء التزكية حول التوحيد، فقد ألف جعفر بن إدريس الكتاني (ت1323ه) كتابا في الرد على الطاعنين في المذاهب الأربعة والعقيدة الأشعرية والسلوك الجنيدي سماه: "الفجر الصادق المشرق المفلق في إبطال ترهات الثرثار المتشدق المتفيهق"[12]، وألف الاحسن البعقيلي (ت1368ه)، كتابا في العقيدة والسلوك والتزكية سماه "سوق الأسرار إلى حضرة الشاهد الستار"[13].

ولم تقتصر إسهاماتهم في هذا المجال على التنظير والتأصيل، بل شملت حتى النقد والتوجيه فيما يتعلق بما صدر عن بعض علماء التزكية مما يوهم ظاهره تجاوز حدود الشريعة أو مخالفة ضوابط التوحيد، وكذلك صنع

6- مرآة الجنان، اليافعي (2/ 174).

7- تبيين كذب المفتري، ابن عساكر ص: 141.

8- سورة الأنفال: 24.

9- صحيح مسلم (1/ 36، ح 08).

10- اغتنام الفوائد، زروق ص: 27 - إعانة المتوجه المسكين، زروق ص: 27.

11- رسائل أبي علي اليوسي (2/ 409).

12- تحقيق: عدنان زهار، دار الكتب العلمية، 2009م.

13- الشركة التونسية 2009م.

محمد المنالي الزبادي (ت1209ه) وأحمد بن عجيبة (ت1224ه) مع بعض مقولات أبي يزيد البسطامي[14]، وكذلك الشأن بالنسبة لمحمد بن عبد الكبير الكتاني (ت1327ه) الذي سعى إلى تأسيس منهج في التعاطي مع أذواق العارفين وأعلام التزكية، لُحْمَته "حسن الظن" وسَدَاه "حسن التأويل"، فكان يؤكد على ضرورة تأويل ما صدر عنهم مما يتوهم من ظاهره مخالفة مقتضيات التوحيد، تحسينا للظن بهم وسدا لباب الإنكار عليهم، وصونا لدمائهم وتحفظا من تكفيرهم[15].

وفي تجل آخر من تجليات اهتمام علماء التزكية بحقيقة التوحيد، وهو التجلي السلوكي والتربوي، ما يذكر من ترجمة علي الإلغي الدرقاوي (ت1328ه) أنه كان لا يستقر في زاويته، ويخرج إلى القرى يعلم الناس التوحيد، وأحكام العبادات، وكان من عادته إذا أقبل على قرية من القرى، يرفع هو ومن معه أصواتهم بكلمة التوحيد، ثم يأمر من ينادي في الناس ليجتمعوا في المسجد، ثم يشرع في الوعظ جامعا بين الترغيب والترهيب، التبشير والإنذار، وتعليم وأمر ونهي[16].

ولما كان من مدلولات التزكية، تصفية القلب وتخليته من كل ما سوى الله تعالى، فإن القصد من ذلك أن يصبح محلا ليستقر فيه التوحيد، وينتقل إيمان صاحبه من التصديق العقلي إلى التصديق القلبي، وتمتزج الأدلة العقلية على التوحيد بالأدلة الوجدانية، التي تشكل غاية مفهوم الإحسان، وبهذا يتفاضل إيمان المؤمنين، وفي طلب مداه ينبغي أن يتنافس المتنافسون، وهو ما فاق به الصديق ﷺ الصحابة وسائر المؤمنين، لذلك أثر عن بكر بن عبد الله المزني قوله: «مَا فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ وَلا صَلاةٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ»[17].

إن قيمة التوحيد في مجال التزكية تتجلى بشكل واضح في جمع القلوب على غاية واحدة، هي المعرفة بالله تبارك وتعالى، وهي مسبوقة بمعرفة فضل مقام رسول الله ﷺ، وذلك ما يتحقق بصحبة ومتابعة الشيخ المربي المقتفي لأثر رسول الله ﷺ، الأمر الذي يستلزم الاعتراف والإقرار أولا بمفهوم الإمامة في الدين التي تتفرع عنها الإمامة في شؤون الدنيا وتدبير شؤون الرعية.

لذلك اعتبرت "الإمامة العظمى" إحدى المفاهيم الأساس في البناء المجتمعي، وإحدى الواجبات الدينية، التي تؤدى عن طريق البيعة الشرعية التي توثق العهد بين الراعي والرعية، لتدبير شؤون الدين والدنيا لضمان الأمن والاستقرار لأمة التوحيد.

---

[14]- انظر: سلوك الطريق الوارية، محمد المنالي الزبادي ص: 76 - الفتوحات الإلهية، ابن عجيبة ص:261.

15- البحر المسجور، الكتاني ص: 93 - الكشف والتبيان، الكتاني، ص: 180.

16- المعسول (1/ 234 و 259) - الترياق المداوي، السوسي (2/ 124).

[17]- المقاصد الحسنة، السخاوي ص: 584 - كشف الخفاء، العجلوني (2/ 190).

❖ **المبحث الثاني : قيمة التزكية وتجلياتها التربوية**

اشتمل القرآن الكريم على معجم واسع لألفاظ التزكية، منها قول الله سبحانه في جواب أطول قسم في القرآن في مطلع سورة الشمس: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ [18]، وقوله عز من قائل: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى**﴾ [19].

والتزكية مفهوم مركزي من المفاهيم القرآنية، وبتعدد مدلولاتها القرآنية يتبين أنها ليست مجرد مسألة مشاعر وخواطر نفسية يتم تهذيبها، كما لا تقتصر على مستوى الإصلاح الفردي، بل تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشري، والتزكية في القرآن لا تقتصر على أن تكون فعلا مكتسبا للإنسان، بل تكون أحيانا فعلا لله سبحانه: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [20]، كما قد تكون من مهام رسول الله ﷺ، قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [21].

ولاشك أن هناك ارتباطا بين فاعل التزكية وبين منظومة القيم المشار إليها آنفا، فإن التزكية بما هي فعل لله تعالى، هي هداية وتوفيق للتوحيد الخالص، وهنا تتجلى قيمة التوحيد. أما التزكية بما هي مهمة للرسول ﷺ، فهي تهذيب لنفوس أفراد الأمة، من خلال التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل. أما التزكية باعتبارها فعلا للإنسان، فإنها تقتضي منه تحصيل ما يتوصل به إلى أداء أمانة إعمار الأرض، وهنا تتجلى قيمة العمران.

والحالة الوحيدة التي تكون فيها التزكية أمرا مذموما في القرآن، هي حين يقصد بها المبالغة في المدح والثناء على النفس، وفي ذلك ورد قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا، انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا**﴾[22]، وقوله: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾[23]، وقد وسعت السنة النبوية هذا المعنى ليشمل حتى الإفراط في تزكية الغير[24].

وقد ارتبطت التزكية بعلم السلوك ولازمته في كل مراحل تطوره إلى اليوم، إذ بعد تزايد مظاهر الاحتفاء بالدنيا وتواتر الفتن السياسية في القرن الأول الهجري، برز ميل إلى الزهد باختيار نمط من السلوك الاجتماعي أقرب إلى

---

[18]- سورة الشمس: 9-10.

[19]- سورة طه: 74-75.

[20]- سورة النور: 21.

[21]- سورة آل عمران: 64.

[22]- سورة النساء: 49.

[23]- سورة النجم: 32.

[24]- انظر: صحيح البخاري (176/3، ح 2662).

السلامة في العلاقة مع مختلف التيارات الاجتماعية، تطور بعد ذلك إلى منهج يروم التقلل من الدنيا والانشغال عنها بالذكر والعبادة.

ولما كان هذا النمط من السلوك يشكل منهجا من مناهج الحياة عموما، فقد سلكه أناس عبر التاريخ من الأديان والثقافات السابقة، ولا تزال أخبارهم وحكمهم ومواعظهم محفوظة لدى أممهم وأتباعهم، وبعد انفتاح الأمم على بعضها بدأت النظريات والمصطلحات تهاجر من ثقافة إلى أخرى، الأمر الذي اضطر علماء الإسلام إلى التنظير لأصول السلوك والتزكية.

ومن شدة الحرص على التأصيل السني لعلم التزكية القائم أساسا على حديث جبريل عليه السلام في بيان الإسلام والإيمان والإحسان، جاءت كثير من المصطلحات في ثلاثيات مترابطة ومتلازمة، تتكامل بينها في ترسيخ منظومة القيم الثلاثية العليا (التوحيد والتزكية والعمران)، ومن هذه الثلاثيات: الشريعة والطريقة والحقيقة، الجمال والجلال والكمال، التخلي والتحلي والتجلي...

لكن بعض علماء التزكية جعلوا من التجلي ومن طلب الحقيقة أصلا قائم الذات، فإذا تحقق لم يكن لما قبله من قيمة، وهؤلاء هم أصحاب المنهج العرفاني من أهل الحقائق، غير أن التحقيق العلمي لدى أعلام المنهج السلوكي يجعل تلك الثلاثيات وما تعبر عنه من مستويات متكاملة ومتلازمة، تتحقق بصورة تصاعدية متراتبة، لا يتم فيها الانتقال من واحدة إلى الأخرى تجاوزا وتركا، بل يتم من خلال الانتقال بها ومعها إلى ما فوقها، فالارتقاء إلى التجلي والشهود إنما يحصل مع دوام التخلي والتحلي، والارتقاء إلى الحقيقة يكون بملازمة الشريعة الإسلامية والطريقة المحمدية، كما أن السعي نحو الكمال في التوحيد والتزكية إنما يكون لمن جمع بين الجمال والجلال.

ومن مظاهر تزكية النفس في الإسلام، التوبة والإقلاع عن المعاصي، والإقبال على الآخرة بالعمل الصالح، والإعراض عن الدنيا بالزهد فيها وترك التشوف إليها، والانشغال عنها بذكر الله وعمارة الوقت بطاعته سبحانه، والتحلي بمجموعة من الصفات في مقدمتها الزهد ، الذي يعد رأس الأخلاق وأفضل فضائل الأعمال وجميل الأفعال، ومن معانيه: "خلو الأيدي من الأملاك، والقلوب من التتبع"، وهو ترك فضول متاع الحياة الدنيا، وترك طلب شهواتها، والرضى بالقليل والقناعة باليسير من الذي لابد منه[25].

إن الزهد ليس هروبا من حمل الأمانة، أو عجزا عن القيام بالمسؤولية في ابتغاء فضل الله تعالى من الكسب الحلال والإسهام في الإنتاج، وتلبية متطلبات الواقع السياسي والاجتماعي، كما أنه ليس رهبانية تحرم على النفس ما أحل الله، لذلك وضع علماء التزكية ضوابط لهذا الزهد، قاموا بصياغتها تحت مسمى "التجريد" وهو على ثلاثة أقسام: تجريد الظاهر: وهو ترك كل ما يشغل الجوارح عن الله. وتجريد الباطن: وهو ترك كل ما يشغل القلب عن الله. وتجريدهما: وهو إفراد القلب والقالب لله[26].

25- موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، د رفيق العجم ص: 440.

26- انظر: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، د رفيق العجم ص: 161.

يقول أبو بكر بناني(ت1284ه): «التجريد عبارة عن الجلوس على بساط الفقر حسا ومعنى، إذ التجريد عند أهله هو التحقق بأوصاف العبودية والقيام بوظائف الربوبية، والعبودية كلها فقر وفاقة وذل واضطرار لا غير، كما أن الربوبية بضد ذلك، فكلما تَحَقَّقْتَ بوصفك، أمدك الحق بأوصافه، وعلى قدر التخلي يكون التحلي»[27].

إن تزكية النفس ليست مجرد رؤى معرفية أو أفكارا نظرية، بل هي ألوان من الجهاد والمجاهدة، جهاد ضد الشيطان وسائر أعداد الدين، ومجاهدة للعدو الأكبر وهو النفس البشرية الأمارة بالسوء، الطامعة الراغبة في شهوات الدنيا المحبة لملذاتها.

ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى وسائل تزكية النفس، قول الله سبحانه: ﴿**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ [28]، وهنا نجد الأمر بإقامة الصلوات المفروضة في وقتها، مع الحرص على النوافل والتهجد بالقرآن، ثم نجد البشارة بالمقام المحمود، وكثير ممن فسروا القرآن الكريم قصروا هذا المقام على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وهو أحق به. لكن المؤمن المقتدي به ﷺ القائم بهذه الأعمال، ألا يكون له نصيب من هذا المقام المحمود؟

الجواب في الحديث القدسي الذي يقول فيه الله تبارك وتعالى: «..وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[29]، وهذه المحبة من الله تعالى للعبد المحافظ على الفرائض والمكثر من النوافل، أليست مقاما محمودا له في الدنيا يبعث عليه يوم القيامة؟، فأي وسيلة وأي تزكية أعظم وأكبر من هذا.

وحين يتساءل المرء عن الوسائل التي اعتمدها علماء السلوك للتزكية، يجد أن الإطار العام الذي حددوه لضبطها هو "التخلي والتحلي"، التخلي عن العلل والأمراض التي تصيب القلب مثل: الرياء والعجب والكبر والحسد..، والتحلي بأضدادها من الإخلاص والتواضع والمحبة والتعايش والرحمة... وذلك لا يتم إلا من خلال القيام بالفرائض والإكثار من النوافل، وتعاهد القرآن بالقرآءة والتفكر والتدبر، والتحلي بالتقوى، وكثرة الذكر ومحاسبة النفس وذكر الموت...ولنستعرض أبرز هذه الوسائل على النحو الآتي:

- أولا : القرآن الكريم

ليس تمة تزكية لا تبدأ بالقرآن ولا تنتهي إليه، وقد أيقن المربون المسلمون أن تزكية النفس لا تتحقق إلا من خلال القرآن الكريم فكانوا يواظبون على تلاوته ويحثون تلامذتهم على المحافظة على وردهم اليومي من القرآن،

27- مدارج السلوك، بناني ص: 52.

28- سورة الإسراء: 78- 79.

29- صحيح البخاري (8/ 105، ح6502).

والأمثلة والأدلة على هذا أكثر من أن تحصى كثرة[30]، فمنها أن العربي الدرقاوي(ت1239ه) كان يحفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع[31]، كذلك تلميذه أحمد بن عبد المومن الغماري(ت1262ه)، حفظ القرآن الكريم حتى أتقنه بالقراءات السبع[32]. كما كان عبد الواحد الدباغ (ت1271ه) يكتفي بربط التلاميذ والفقراء بالقرآن الكريم والسنة، لمعرفة أوامر الله لامتثالها، ومعرفة النواهي لاجتنابها، فلا الطالب ولا الشيخ في وسعه مخالفة ما أمر الله تعالى به، وكان يقول إن «مجال التربية على يد المشايخ، يقتصر على المباحات التي تعين المريدين على تصفية بواطنهم وظواهرهم، وذلك عن طريق الأذكار والمجاهدات المتنوعة، دون التشويش عليهم بإشارات قد تشغلهم عما هم فيه»[33].

- ثانيا : الذكر والفكر

ويراد به ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته، والتفكر والتدبر في آياته المتلوة والمرئية على صفحات الكون، مع حضور القلب خشوعا ومشاهدة، وبهذا الحضور يترقى الإنسان إلى مرتبة الإحسان التي بين الإمام النووي المراد من معناها الوارد في حديث جبريل ﷺ بقوله: «فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى، في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك، وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من تلبسه بشيء من النقائص، احتراما لهم واستحياء منهم، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعا عليه في سره وعلانيته»[34].

وقد اجتهد أعلام التزكية في إلزام طلبتهم بأعداد محددة من الأذكار، في سبيل الاستجابة لله تعالى الذي أمر بالإكثار من الذكر في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿**وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**﴾[35]، وقوله تعالى: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**﴾[36]، وقوله عز وجل: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾[37].

ولا يخفى أن النفس التي لم تتذوق حلاوة الذكر، قد تتوهم العدد القليل استجابة وإكثارا، لذلك اجتهد مشايخ التربية في تحديد العدد، الذي اعتبروه من المباحات علما أنه لم يقل أحد بتحريم أو كراهة الزيادة على العدد المحدد، بل حذروا من النقصان، لأن القصد هو الإكثار من الذكر ما أمكن، ولا يقتصر الغرض منه على تكرار

30- المعسول، السوسي (6/208-220) و(6/244).

31- موسوعة أعلام المغرب (7/ 2516- 2517) - المطرب، التليدي ص: 205.

32- موسوعة أعلام المغرب (7/2577)- سلوة الأنفاس (3/ 471، ترجمة 1818)- المطرب ص: 235.

33- النور القوي، ابن القاضي الورقتان: 08-09.

34- المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي (1/ 157- 158).

35- سورة آل عمران: 41.

36- سورة الأحزاب: 35.

37- سورة الأحزاب: 41.

الكلمات وترادها في مواعيد وحالات ومواقف محددة، بقدر ما يراد منه استشعار الحضور الدائم لله تعالى في العقل والقلب، وما يعقب ذلك من مراقبة ومحاسبة.

ومن العبث أن يدعي بعضهم أن علماء التزكية يشرعون للناس ما لم ينزل به سلطانا، أو أن من منهجهم التكليف بما لا يطاق، بل هو لعمر الحق تحقيق لمعنى العبودية لله سبحانه، نعم قد يتطلب الأمر مجاهدة للنفس في البدايات مصحوبة بشيء من المشقة، لكن سرعان ما يصبح ذلك عادة محببة، فيصير الذكر والحضور طبعا في النفس بعد أن كان تطبعا.

- ثالثا : صحبة الصالحين

من أهم وسائل التزكية، صحبة الصالحين الذين يستعان بصحبتهم على الطاعة والجد في العلم والعمل، وعلى الثبات على الحق والصبر على البلاء، ومعلوم أن أعمال الصالحين قد تكون أحيانا أفصح من أقوالهم، فمجرد رؤيتهم تذكر بالله، وقربهم يبعد عن المعصية، فهم قدوة فيما يعملون وناصحون فيما يقولون.

ولا مرية أن خير الصحبة صحبة المسجد، إذ يقول سبحانه: ﴿**وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ**﴾ [38]، غير أنه لما كانت المساجد غير متاحة في كل الأوقات، أنشأ أعلام التزكية الزوايا لتقوم بوظيفة المسجد إضافة إلى ما تتيحه من وظائف مثل الاجتماع على الذكر وطلب العلم، والضيافة والتكافل...

إن ما يُروج له اليوم في بعض الأوساط المنتسبة إلى الثقافة، من حديث حول فشل منهج التزكية لدى علماء السلوك، وضرورة تنحيتهم من الحياة الاجتماعية، بسبب ما يقع فيه بعضهم من المخالفات، هو كلام يُبرز مدى خطورة السطحية في تشخيص الأمراض التي تعانيها الأمة، ولا يكاد يخلو عصر من منتحليه والقائلين به، فقد نقم كبار الفقهاء باليمن على الشيخ أحمد بن إدريس الإدريسي[39] (ت1253ه) أيام إقامته بينهم، أن من أصحابه وتلامذته، من يأتي بأمور منكرة، ثم إنهم يخضعون له خضوعا تاما، فانتقدوا ذلك عليه في مناظرة جرت بينهم، فبين لهم أن العصمة مرتفعة عن غير الأنبياء عليهم السلام، وأن مع الخيرية التي شهد بها الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ، إلا أنه سبحانه خاطبهم في آيات بقوله ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَه**﴾[40]، ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ**

[38]- سورة لقمان: 15.

[39]- انظر ترجمته في: موسوعة أعلام المغرب (7/ 2555) - شجرة النور (1/ 396) - المطرب ص: 227 - ترجمة بعنوان: السيد أحمد بن إدريس في سطور، لعبد العزيز بن هاشم الإدريسي، في كتاب "المناظرة الكبرى بين السيد أحمد بن إدريس وفقهاء الوهابية"، مراجعة: عبد العزيز الإدريسي، ص: 73 مكتبة أم القرى (د ت).

40- سورة النساء: 14.

إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[41]، ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**﴾[42]، وقد نزلت هذه الآيات على أسباب ووقائع، ولم تكن مجردة[43].

أما في شأن تعظيم المشايخ فإنما هو لما يحملونه في صدورهم من الشرع الحنيف، والنبي ﷺ يقول: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّه**»[44].[45]

وبذلك يمكن القول إنه لا يخلو عصر من وجود فئات من أدعياء العلم، لا يزنون الأمور بموازينها المنطقية والعقلية، ولا يطرحون أفكارهم إلا خارج السياق العام، دون مراعاة للثقافات السائدة وحاجات الناس المتجددة، ولا يستحضرون ضرورة تكامل المجهودات التي تبذل في كل المجالات العلمية والمعرفية والأخلاقية والصناعية والتكنولوجية والفنية، وفي هذا السياق يقول مالك بن نبي: "إنه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمته ومركزها، بل يجب أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولا من الشرق أو الغرب، فإن في ذلك تضييعا للجهد ومضاعفة للداء، إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار"[46].

إن علماء السلوك يسعون إلى تحقيق التزكية لكل نفس حسب قدرتها واستطاعتها، ومقصودهم هو العمل والاجتهاد حتى تحقيقها، وقد لا تنجح بعض النفوس في ذلك، كما قد ينتسب إلى مجالهم بعض الأدعياء من البطالين أو الدجالين الذين لا يعرفون من التزكية إلا الاسم دون المسمى، لذلك أفاض العلماء في بيان أوصافهم ودعاويهم تحذيرا للناس منهم.

41- سورة الأنعام: 151.

42- سورة المائدة: 74.

43- المناظرة الكبرى ص: 52.

44- جزء من حديث "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ"، ذكره السخاوي في "المقاصد الحسنة"، ص: 565.

45- المناظرة الكبرى ص: 40.

46- شروط النهضة، مالك بن نبي ص: 53.

❖ **المبحث الثالث : قيمة العمران وتجلياتها التربوية**

العمران قيمة تحدد فقه العمل في الحياة الدنيا، لا سيما عمل المجتمع المتعلق بنظم الإدارة والرعاية لشؤون الناس، بتيسير سبل الحياة لهم، ورفع الحرج والمشقة عنهم، وكما يتجلى فقه العمران في الجوانب المادية لحياة المجتمع، من أبنية وطرق وزراعة وصناعة...يتجلى كذلك في الجوانب المعنوية لحياة المجتمع في استتباب الأمن وإقامة العدل وممارسة الشورى...[47]

وقد جاءت دلالات العمران في القرآن، بما يفسر سكنى الإنسان في المكان، والعيش فيه، وتعميره وإصلاحه والاستقرار فيه، وتوظيف طاقاته وإمكاناته، وأداء حق الله سبحانه في إقامة الحياة البشرية وفق مقاصد شريعته وهدي نبيه ﷺ.[48]

ومن معاني العمران في القرآن، الإقامة والاستقرار في الأرض، وبناء المساكن وتشييد القصور والأخذ بأسباب الحضارة، ومنها قول الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا**﴾ [49]، ومنها كذلك معنى النسك والعبادة، ومنها معنى عمران المساجد وبنائها وخدمتها، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾[50]، ولا يقابل العمران في القرآن الكريم إلا الفساد وسفك الدماء والهدم والتدمير والخراب.

إن قيمة العمران مرتبطة ارتباطا مباشرا بالحياة على هذه الأرض، ولا حياة للناس إلا بحياة قلوبهم بالطاعة، لذلك قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[51]، ولقد كان محور اشتغال علماء التزكية -ولا يزال- متركزا حول حياة القلوب وعلاج أدوائها وعللها، إيمانا منهم بأن في صلاحها صلاح سائر الأعضاء والجوارح التي يستعملها الإنسان في جلب الخير ونشره في مجتمعهّ، وهذا هو أساس عمارة الأرض.

ولا يخفى أن الحياة الطيبة التي ينشد الإسلام تحقيقها لأتباعه، تتحقق بسعادة النفس وصلاح البال وعموم الخير، واجتماع الناس على الألفة والمودة، وشيوع الأمن وتحقق التعارف والتعاون، وتوفر أسباب الرغد، وذلك حين يعمرها العمل الصالح صلاحا وإصلاحا.

وقد اجتهد المفكر مالك بن نبي في وضع معادلة تجمع العناصر المتدخلة في تحقيق قيمة العمران، من خلال البناء الحضاري للحياة الطيبة في المجتمع وهي:

---

[47]- منظومة القيم العليا، ملكاوي ص: 127.

[48]- المرجع السابق ص: 153.

49- سورة الروم: 9.

50- سورة التوبة: 18.

51- سورة الأنفال: 24.

الإنسان + التراب + الوقت ← الحضارة

غير أنه أكد أن هذه العناصر الثلاثة، لا تنتج بالضرورة حالة حضارية إلا إذا توفرت الطاقة الروحية أو الشعلة القادرة على استثمار هذه العناصر.

ومعلوم أن النبي ﷺ في تربيته للصحابة الكرام، كان يوجههم إلى الارتباط بمنهجه أكثر من ارتباطهم بشخصه -وإن كان الارتباط بشخصه ﷺ مطلوبا من باب المحبة والتعظيم والاقتداء- لأن من حكمة الله تعالى أن كتب الاستمرار للمناهج والأفكار دون الأشخاص، لذلك قال أبو بكر الصديق بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى: "**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ**"[52]، فكلما ارتبط الناس بالمنهج الرباني ووجهوا وجهتهم نحوه، كلما تحرروا من عبادة الأصنام، وأخطرها أصنام الشهوات التي يصنعها الذهول عن المنهج الإسلامي في عمارة الأرض.

لذلك حرص مشايخ التربية على الدلالة على الله بلسان الحال والمقال، وما كان يشغلهم شاغل عن تقييد تلامذتهم بالمنهج النبوي، وربما يشددون عليهم في مرحلة من مراحل الترقي، حتى يؤهلوهم إلى الاستقامة على منهج الحياة الرباني في كل مجالات الحياة.

وبذلك يمكن القول إن علم التزكية كان ولا يزال أحد أهم عناصر البناء الحضاري للأمة، حتى في الفترة التي عانى فيها المغرب مثل سائر البلاد الإسلامية تحت وطأة الاستعمار، واستفحلت آثاره بسبب بعض النفوس المنهزمة التي تقبلت الخضوع والذلة وتخلت عن روح التسامي. سهر علماء التزكية على بث روح التحرر والنهضة والبناء في النفوس من جديد، متجاوزين كل الصعوبات التي كان يعانيها المجتمع من فقر وجهل وأمية، لأن التحرر ينطلق من النفس لقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [53].

ولما آمنت فئات عريضة من الناس بفكرة التغيير نحو الأفضل، قدمت التضحيات تلو الأخرى في سبيل النهوض بالأمة، إذ تنبهت لا إلى مجرد أعراض الداء بل إلى الداء نفسه، وإلى موطنه الحقيقي وهو النفس البشرية التي أُفرغت بفعل عوامل عديدة من محتواها الأخلاقي والقيمي استعدادا لتلقيها وقبولها لكل دخيل.

فكان الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني(ت1327ه) لا يتوانى عن الصدع بمواقفه الرافضة للاحتلال الفرنسي لشرق المغرب، ولمدينتي وجدة والدار البيضاء، مع دعوته إلى الجهاد ضد المستعمر، حتى إنه كان يقدم الدعم المادي والمعنوي لبعض الجرائد المتخصصة للرد على الهجوم الفكري الغربي[54].

وحين أنشأ المستعمر الفرنسي مدرسة لنشر أفكاره المناهضة للإسلام بمدينة طنجة، ألقى الشيخ محمد بن الصديق(ت1354ه) خطبة عظيمة بليغة مسهبة بالزاوية الناصرية، حذر فيها المسلمين من إدخال أولادهم إليها،

52- صحيح البخاري (6/ 13، ح 4452).

53- سورة الرعد: 11.

54- انظر: منطق الأواني، حمزة الكتاني ص: 140.

وذكر أن هذه أول لبنة يضعونها للقضاء على القرآن ودين الإسلام، وإفساد أولاد المسلمين. كما كان يخرج بنفسه إلى القبائل الغمارية والجبلية يحرض أهلها على جهاد الإسبان ويأمرهم بالصمود، كما يُذكر أنه كان من المساعدين للزعيم عبد الكريم الخطابي في حركته بالمال والرجال[55].

ولم تقتصر تجليات قيمة العمران عند أعلام التزكية بالمغرب على العمران الاجتماعي بإنشاء وبناء الزوايا وتسخيرها للجهاد وخدمة المجتمع، بل اهتموا كذلك بالعمران الفكري والثقافي، من خلال التفاني في طلب العلم والحث عليه، فقد كان الشيخ أحمد البدوي زويتن(ت1275ه) -على سبيل المثال- يأمر تلامذته بقوله: «على كل من أراد الاقتداء بنا في سلوك الطريقة، أن لا يضع قدمه في سلوكها حتى يعقد عقدة الصدق مع ربه في كل حال سرا وعلانية، ثم ينسلخ من حوله وقوته، ويعتمد اعتمادا كليا على محض وسع رحمة ربه وكرمه وفضله، ثم يعلم ما وجب عليه من الأمر والنهي ويعمل به، ويكون مع ذلك مقيِّداً أقواله وأفعاله وأخلاقه وأحواله عبادة وعادة بقيد آداب عزائم السنة المحمدية، والرخص دائما لديه مطوية إلا لضرورة شرعية..»[56].

كذلك الشيخ أحمد الإدريسي(ت1253ه)، الذي اشتهر بالإقبال بالكلية على تدبر معاني كتاب الله، وإطالة التفكر في استجلاب أسرار معانيه، حتى فتح الله تعالى عليه[57]، فانعكس انشغاله الكبير بالقرآن الكريم وبمختلف العلوم على تربيته لتلامذته ومريديه، فكان يأمرهم بدوام قراءة كتب العلم بالإضافة إلى كتب التزكية[58].

أما الشيخ الحسن التيملي الإيرازاني(ت1308ه)، فيُذكر أنه اشتغل بالإرشاد والوعظ وتعليم العلم أكثر من خمسين عاما، ولم يُرَ مستندا إلى حائط ولا منحرفا عن القبلة[59].

ومن تجليات العمران الثقافي كذلك ما تميز به علماء التزكية من الحرص على التأليف والتنظير للعلوم الإسلامية المتنوعة من تفسير وفقه وحديث وغيرها، والخزانة المغربية والإسلامية شاهدة على غزارة الإنتاجات العلمية في كل المجالات.

55- المطرب، التليدي ص: 247.

56- المناجاة الفردية الإلهية في تبين معالم الطريقة المحمدية، أحمد البدوي ص: 24.

57- حلية البشر، البيطار(208/1) - المختار المصون (3/ 1557).

58- رسالة الأوراد الإدريسية، محمد بن علي بن إدريس، ص: 22.

59- المعسول، السوسي (19/ 54-55).

خـــــاتمـــــــــة

إن الأمة الإسلامية في أمس الحاجة إلى إحياء منظومة القيم العليا "التوحيد والتزكية والعمران"، واعتمادها مصدرا لسائر القيم الرئيسة والفرعية، حتى تتمكن من معالجة الخلل الذي تسرب إلى رؤيتها وعقيدتها، مما أدى إلى انحسار حضارتها.

فالتوحيد قيمة مركزية من قيم الإسلام، وهو حقيقة مطلقة يستخلصها العقل السليم من التأمل والتفكر والتدبر في نظام الكون، قبل أن يتعزز ويطمئن بأدلة النقل والعقل، أما التزكية فإنها ارتقاء بالنفس الإنسانية إلى مصاف الصديقين، وسمو بها عن رذائل الأقوال والأفعال والأحوال، كما أنها تطهير للمجتمع من أنواع الفساد والانحراف، وترسيخ لمفاهيم عدة مثل الرشاد والمسؤولية والتكافل الاجتماعي، وأما العمران فهو سعي نحو توظيف مؤهلات الإنسان وإمكاناته، في بناء حياة عامرة بالخير والصلاح، تحقق مقاصد الخلافة في الأرض بما ينتج عنه من تطوير للحضارة البشرية وترشيد لها.

ولا يخفى أن الأمة الإسلامية تمتلك من مقومات النهضة وعوامل الرقي الحضاري، ما يمكنها من أن تقود العالم إلى بحر التعايش والتكافل والتراحم، من خلال تحقيق الأمن الروحي والسلامة النفسية التي لا يضمنها إلا علم التزكية المقيد بالكتاب والسنة، والقائم على التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل، فهو الذي تتجلى من خلاله أسمى معاني الرحمة للعالمين.

إن الذي تحتاجه الأمة اليوم ليس هو إقفال الزوايا والقضاء على مناهج التزكية المتعددة والمتنوعة، بل إن الأمة بحاجة إلى تجديد خطاب التزكية المعاصر، من خلال تقييده بالفقه في الدين، وضمان انفتاحه على العلوم الكونية، فإن ذلك كفيل بأن يحول رجال الفطرة السليمة المحبين للذكر، الذين أشربت قلوبهم محبة الصالحين، إلى صناع الحضارة والرقي، من خلال تصريف طاقاتهم الإيجابية فيما يعود بالنفع عليهم وعلى أمتهم كل حسب مجاله وتخصصه، إذ التوازن الأخلاقي والقيمي في العصر الحاضر ما عاد يناسبه الترويج لمفاهيم التجريد والتخلي عن الأسباب الشرعية في طلب العلم وطلب الرزق، ولبس المرقعات الملونة، وغيرها من المظاهر التي قد تقبل في حالات نادرة -لتغيير عادات النفس- لا أن تكون ثقافة مجتمعية كما تحاول بعض وسائل الإعلام الترويج له.

ثم إن قيمة التوحيد التي تمثل جوهر الحياة الدينية في الإسلام، وأساس البناء الحضاري الإسلامي، تبقى فاعليتها حبيسة في الجانب النظري إذا لم تنبثق عنها تزكية في نفس المُوَحِّد وفي معاملاته ومختلف أنماط سلوكه، كما أن تزكية النفس إذا لم ترتبط بأساس التوحيد ولم تحدد علاقتها وارتباطاتها ببناء المجتمع وعمرانه الحضاري، فإنها تتحول إلى انسحاب من الحياة العامة وعزلة كلية عن المجتمع، لذلك لا يقبل إلا في إطار مرحلة من مراحل تربية النفس وتزكيتها.

وللأسف يحاول بعض المتعاملين مع التراث انتقاء بعض النماذج المنحرفة وتسليط الضوء على بعض الاستثناءات، ومحاولة تضخيمها وتعميمها والحكم من خلالها على علم قائم الذات من علوم الإسلام، بل يوصف بأنه روحها وجوهرها، وبسبب تعدد أنواع الالتباس الفكري في المجتمعات الإسلامية، أضحى بعض الشباب

المتدين لا يجد حرجا في دراسة الفكر الغربي ومطالعة الإنتاجات الغربية-وهو أمر مطلوب-، بقدر ما يتحرج من دراسة ومطالعة كتب التزكية التي تشرح مصطلحاتها، وتبين هويتها وقواعدها ومناهجها واتجاهاتها، بدعوى التخوف من تسرب الأفكار المنافية للتوحيد والمخالفة للسنة ونحو ذلك.

والحقيقة كما تقدم تؤكد أن الفكر التزكوي، فكر تربوي سني شديد الارتباط بالقرآن والسنة، متشبع بالقيم ملازم لها ومرتبط بها، وقد لاحظنا أثر ذلك في تجليات قيمة التوحيد، من خلال الحث على تصحيح العقيدة قبل تزكية النفس، والتزام مبدأ "حسن الظن" بالعارفين و"حسن التأويل" لما صدر عن بعضهم مما يوهم تجاوزا لضوابط التوحيد، مع تقدير أهمية الإمامة العظمى التي توحد الفكر والشعور عبر البيعة الشرعية.

وكذلك من خلال التجليات التربوية لقيمة التزكية التي تعتمد أساسا على التخلية والتحلية استنادا إلى المنهج الرباني الذي جاء به القرآن وبينته السنة النبوية بكيفية عملية، عن طريق مداومة الذكر والفكر وتحري صحبة الصالحين والاقتداء بهم.

وأيضا من خلال تجليات قيمة العمران في الفكر التربوي، بالنظر إلى مجالات عدة منها العمران المعرفي والثقافي، والعمران الاجتماعي ونحوهما.

وبذلك يتأكد أن النفس البشرية عندما تكتسب منطق البناء الحضاري والإصلاح الاجتماعي من خلال القيم الإسلامية الكبرى "التوحيد والتزكية والعمران"، يتولد لديها منطق العمل الاجتماعي، الذي يتفاعل فيه الإنسان مع مكونات محيطه في إطار الزمن الذي يعيشه، ليسهم في التأثير في مجتمعه بلسان حاله ومقاله.

والمؤكد أن جهود علماء التزكية في إحياء القيم في المجتمع، من شأنه أن يسهم في نقل الأمة الإسلامية من حالة الغياب إلى حالة الشهود الحضاري، حتى تصبح مهوى أفئدة المتطلعين إلى الحضارة الحقة التي تحفظ للإنسان إنسانيته وللمجتمع تماسكه.

وانطلاقا من مبدأ التكامل الشامل الذي يطبع الحياة البشرية بكل مجالاتها وجوانبها المتقابلة، مثل تكامل الجسد والعقل والروح، وتكامل العمل للدنيا والعمل للآخرة، وتكامل العلم والعمل، وتكامل الفرد والجماعة...نستخلص أن قيمتي التوحيد والتزكية لا تظهر آثارهما إلا بالتكامل مع قيمة العمران التي تضع المحددات للوجود البشري، والتفاعل الإنساني مع هذا العالم.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

* المصحف الشريف، برواية الإمام ورش عن الإمام نافع.

- الإحياء والتجديد الصوفي في المغرب (1204ه-1330ه)، د أحمد بوكاري، مطبعة فضالة المحمدية، ط1، 1427ه/ 2006م، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ثلاثة أجزاء: • الأول: الدرقاوية والإحياء الصوفي الشاذلي.
• الثاني: التجانية الشاذلية والمختارية القادرية. • الثالث: الإحياء الديني وقضايا المجتمع والعصر.

- إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، أحمد زروق الفاسي، تحقيق: علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، تونس 1979م.

- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي الدمشقي (ت 1396ه)، دار العلم للملايين، ط5، 1980م.

- اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد (للإمام الغزالي)، أحمد زروق الفاسي، اعتنى به: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ودار الضياء، الكويت 1435ه.

- البحر المسجور في الرد على من أنكر فضل الله بالمأثور، و"سلم الارتقاء في منشأ التصوف ووجوب شيخ التربية"، محمد بن عبد الكبير الكتاني، تقديم ومراجعة: د محمد حمزة الكتاني، تحقيق ودراسة: د إسماعيل المساوي، دار الكتب العلمية، 2005م.

- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، أبو القاسم علي ابن عساكر، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، 1404ه.

- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر تونس، 1984هـ.

- الترياق المداوي في أخبار الشيخ سيدي الحاج علي السوسي الدرقاوي، محمد المختار السوسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 1430ه/ 2009م.

- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار، تحقيق: محمد بهجة البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار صادر بيروت، ط2، بيروت 1413ه/ 1993م.

- الديوانة في وقت ثبوت الفتح للذات المحمدية، محمد بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: د إسماعيل المساوي، دار الكتب العلمية، ط1، 1425ه/ 2004م. ومعه:
• الكشف والتبيان عما خفي على الأعيان في سر آية ﴿ماكنت تدري ما الكتاب ولا الايمان﴾.
• السانحات الأحمدية والنفثات الروعية في مولد خير البرية.
• رسالة في أبوته ﷺ للمومنين وأن كل رسول أب لأمته.

- رسائل أبي علي اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة: فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، ط1، 1401ه/ 1981م.

- رسالة الأوراد الإدريسية، تأليف: محمد بن علي بن أحمد بن إدريس، تحقيق: الشيخ صالح الجعفري، دار جوامع الكلم، القاهرة ط 2، 1428ه/ 2007م.

- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، تحقيق: ذ عبد الله الكامل بن محمد الطيب الكتاني، د حمزة بن محمد الطيب الكتاني، د محمد حمزة بن محمد علي الكتاني، دار الثقافة الدار البيضاء، ط1، 2004م/ 1425ه.

- سلوك الطريق الوارية بالشيخ والمريد والزاوية، محمد المنالي الزبادي، دراسة وتحقيق: ذ نعيمة بنونة، د أحمد الشرقاوي بوكاري، المطبعة والوراقة الوطنية، ط 1، 2010م.

- سوق الأسرار إلى حضرة الشاهد الستار، الاحسن البعقيلي (ت1368ه)، الشركة التونسية للنشر ط2، 1430ه/ 2009م.

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية، القاهرة 1349ه.

- الشرب المحتضر والسر المنتظر من معين أهل القرن الثالث عشر، الشريف جعفر بن إدريس الكتاني (ت 1323ه)، تحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الكتب العلمية ط1، 2004م/ 1425ه ومعه كتاب:
• منطق الأواني بفيض تراجم عيون أعيان آل الكتاني، تأليف الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني.

- شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر دمشق، ط 10، 2011م.

- صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422ه.

- صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، أحمد بن عجيبة، تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود، مطبعة عالم الفكر ميدان سيدنا الحسين، الأزهر الشريف، القاهرة مصر(دت).

- الفجر الصادق المشرق المفلق في إبطال ترهات الثرثار المتشدق المتفيهق، وهو رد على الطاعنين في المذاهب الأربعة والعقيدة الأشعرية والتصوف، جعفر بن إدريس الكتاني (ت1323ه)، تحقيق: عدنان زهار، دار الكتب العلمية، ط1، 2009م.
- قوت القلوب، مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز الإمام الجنيد للدراسات الصوفية، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد المزدوج: 5و6، شوال1436ه/غشت 2015م.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، مكتبة القدسي القاهرة، طبعة 1351هـ.
- المختار المصون من أعلام القرون، مختارات تسعة عشر كتابا من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر، اختيارات وفهرسة: محمد بن حسن بن عقيل موسى، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع جدة، ط1 1415ه/ 1995م.
- مدارج السلوك إلى مالك الملوك، أبو بكر بناني، اعتناء: د عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، ط1، 2012م.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1417هـ/ 1997م.
- المطرب بمشاهير أولياء المغرب، عبد الله بن عبد القادر التليدي، دار الأمان الرباط، ط4، 1424ه/ 2003م.
- المعسول في الإلغيين وأساتذتهم وتلامذتهم وأصدقائهم السوسيين، محمد المختار السوسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1380ه/ 1961م.
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 1405هـ/ 1985م
- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس 2001م.
- المناجاة الفردية الإلهية في تبين معالم الطريقة المحمدية، أحمد البدوي، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط رقم: 1869د.
- المناظرة الكبرى بين السيد أحمد بن إدريس وفقهاء الوهابية، مراجعة: عبد العزيز بن هاشم الإدريسي، مكتبة أم القرى، (د ت).
- منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1434ه/ 2013م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت676ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392ه.
- موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1417ه/ 1996م، ضمنها:
  - دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، محمد بن عسكر الشفشاوني.
  - نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري.
  - إتحاف المُطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، عبد السلام ابن سودة.
  - تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وأحداث السنين، عبد الكبير بن المجذوب الفاسي.
  - سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، عبد السلام ابن سودة.
- موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، د رفيق العجم، مكتبة لبنان، ط1، 1999م.
- النور القوي في ترجمة مولاي عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاي العربي الدرقاوي، محمد المهدي بن محمد بن القاضي، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط رقم: 2301-ك.